بيتٌ مِنْ خَشَب

اسم الكتاب: بيتٌ مِنْ خَشَب

التأليف: د. حنان اسماعيل

نوع العمل: مجموعة قصصية

مراجعة لغوية: أ/ السيد محمد الطحاوي

إخراج فني: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)

رقم الإيداع: 2022 / 1663

الترقيم الدولي: 978-977-835-286-3

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر



دار زحمة كتاب للنشر


Facebook


Email za7ma-kotab@gmail.com


Tel 002 01205100596

002 01100662595



بيتٌ مِنْ خَشَبْ

مجموعة قصصية

د. حنان اسماعيل

الطبعة الأولى

2021

إهداء

إلى صانعي الابتسامة

إلى صانعي الأمل

إلى صانعي الحياة

أهدي هذا العمل



إطلالة نقدية على المجموعة القصصية

" بيتٌ مِنْ خَشَبْ"

تُعدُّ القِصَّة القصيرة شَكْلًا من الأشكالِ الأدبية التي تَحْظى بشعبيةٍ كبيرةٍ لدى جمهورٍ عريضٍ من القراء، ومن السهل على أي قارئٍ عاديّ أن يَتَعرَّفَ على هذا الشكلِ الفني من بين الأشكالِ الأدبيةِ المتعددة، ومع ذلك نجدُ صعوبة على النقاد في إيجاد مفهومٍ محدد أو تعريف شامل لفن القصة القصيرة؛ نظرًا لتعددِ اتجاهاتِها وتطورِ أساليبها مع توالي العصور المختلفة.

ونظراً لأن القصة القصيرة لم تكن تخضع لمواصفاتِ التمثيلِ المسرحيّ للجمهورِ ولا للإلقاء الشعري، فقد استطاعت بالتالي أن تتفادى القيودَ المفروضة على كل من المسرح والشعر.

فالقصة القصيرة تقومُ على علاقةٍ خاصةٍ بين القارىء والكاتب تتيحُ لها امكانياتٍ أشملَ جهة الاندماج المباشر والشخصي في التجربة النفسية، وهذا ما تعتمد عليه الأديبة الدكتورة حنان إسماعيل في مجموعتها القصصية " **بيتٌ مِنْ خَشَبْ** "

تناولت فيها كثيرًا من المواقف المتعددة والذاتية التي تحيط بها، فهي في هذه المجموعة اهتمت بالمضمون إلى جانب تركيزها على الأداة الفنية القادرة على توصيله للقارىء.

لذلك نجد القارئ عندها ينصب اهتمامه على التجاوب العاطفي الذاتي، لأن الأديبة تطرح موضوعاتها بمنتهى الجرأة والموضوعية لما يحدث من حولها من أحداثٍ مجتمعية.

و أشير هنا إلى شيء غاية في الأهمية، وهو أن قصص د. حنان لا تطرح القصة كما لو كانت دراسة اجتماعية أو إنتاجًا مكتوبًا ليس له شكل محدد، لكن من يطلع على مجموعتها القصصية " **بيتٌ مِنْ خَشَبْ** "

يجدها تحظى باستيعاب مضامين كثيرة ومتنوعة، وقد تستطيع بمهارة تحويلها في بعض الأحيان إلى أداة عملية لتحقيق أغراض معينة؛ مثل قصة "الكَنْزْ"، أو "الرحمة يارب"، أو "الحَلْوى"، كل هذا يرجع إلى مرونة الشكل لديها، واستعداده لكل المتناقضات.

ومن وجهة نظري أستطيع القول بأن هذه المرونة لا تعني أنه لا يوجد شكل على الإطلاق، ولكنها تعني الحركة العضوية والديناميكية لشكل عملها القصصي حتى لا يتحول إلى قالبٍ جامد.

كما أرى أيضا أن د. حنان إسماعيل تبتعد عن التسجيل الحرفي للأحداث التي تطرحها أو القضايا، بل تجعل من القصة القصيرة مَحَكًّا لإبراز حقيقة ما أو قضية ما، يخشى البعض طرحها ومناقشتها.

وفى المجموعة القصصية " **بيتٌ مِنْ خَشَبْ** "حرصت د. حنان إسماعيل على مواكبة روح العصر، بل وضعت نفسها في

خدمة القضايا المصابة بداء ممنوع اللمس أو الاقتراب لحساسيتها المجتمعية، وأصبحت مجموعتها القصصية عامةً تعبيرًا فنيًّا مسجِّلا للحقائق المجردة. من هنا نلحظ التطور السريع في أداء الكاتبة الذي يطرأ على مجموعتها القصصية. ففي قصة "رُفات إنسان"، وأيضا قصة "الأجرب"، لم تكن مقتنعة بالتقاليد الموروثة فتحررت فكريًّا حتى لا تجد نفسها سجينة لقالب بعينه.

لذلك فإن مفهوم الواقعية في المجموعة القصصية " **بيتٌ مِنْ خَشَبْ** "، ربما ينحصر في المجهود المستمر الذي تبذله د. حنان إسماعيل لكي تبدع في سردها القصصي، بل نجدها تُعدِّل في الأشكال والأساليب التي تكتبها، فلا تجد لها في مجموعتها القصصية أى تشابه يذكر رغم أن عدد قصصها أكثر من مئتي وخمسين قصة، فهي تضع أعمالها تحت ضوء باهر وساخر، بحيث يراها القراء على حقيقتها.

فتجد الأديبة لا تهتم في قصصها بالممارسات والصراعات بقدر اهتمامها بقضايا تَمَسُّ المجتمعَ والأفرادَ العاديين، لأنها تدرك تمامًا أن الحادث هو ما يقع للشخصية، بينما الحدث هو ما يقع داخل الشخصية أو ما يصدر عنها من تصرفات يمكن أن تكون سلوكية ملموسة وفكرية مجردة، لذلك انصب اهتمامها على الحياة الداخلية للإنسان، بما أنها دارسة لعلم النفس، وأدى ذلك إلى ارتباطها في بعض الأحيان بالمنهج العقلاني الذي ينأى عن الصدفة كعامل من عوامل البناء الدرامى.

على أى حال الحدث ليس سوى الشخصية وهى تتحرك وتحيا، وهنا تعني د. حنان إسماعيل بالشخصية، والشخصية الإنسانية بصفة عامة.

ودائما ما تجد الشخصيات لدى الأديبة من بين ضحايا المجتمع نفسه، بل وتشير إلى وقوع اللوم على عاتق المجتمع نفسه بسبب المتغيرات السريعة وقانون السماوات المفتوحة الذي يحدث متغيرات في القيم الإنسانية، وهذا واضح في طرحها

لقصتها "الحِمْلْ" و "نزيف أوراق" و "الأجرب" و "ونسيتُ ابتسامتي"، أمثلة حيَّة لفلسفة د. حنان إسماعيل في طرحها لمجموعتها القصصية " بيتٌ مِنْ خَشَبْ ".

عموما شخصيات د. حنان إسماعيل هي تجسيد حيّ للحبكة التي تربط بين الخلفية والشخصية. وأرى أنه بدون الحبكة يحدث انفصام بين الشخصية والخلفية، ولا يستفيد أحدهما دراميًّا من الآخر.

فلم تعد الخلفية عند د. حنان إسماعيل مجرد وصف، بل تركيز على الصراع الاجتماعى الذي يتبلور بطريقة مكثفة من خلال الصراع النفسي داخل الشخصيات، وأرى هنا أن الأديبة تضع الشخصية في خدمة الخلفية التي تتحول بدورها إلى البطل الحقيقي الذي يغطي ظله كل المواقف والأحداث.

الناقد الفني

ا.د.إسماعيل صيام

الأجْرَبْ

سئمَ ديكٌ مهامَه ذاتَ يومٍ، فقرَّر أنْ يكفَّ عن الصِّياحِ، قالَ في نفسِه: لِمَ أُجْهِدُ نفسي في الاستيقاظِ مُبكِرًا لأُؤذِّنْ، فيستيقظُ الناسُ؟ فصار يَسْهرُ الليلَ ويصحو مُتأخرًا. وَجَدَ أمامه بَيْضًا انْشَغلت عنه الدجاجةُ بجمعِ الطَعامِ وتخزينِه، خَشْيةَ أن يُصِيبَها الهُزَالَ حين لا تجد طعامًا وقتَ الرقودِ على البَيْض.

اندهشتْ الدجاجاتُ والديوكُ لمشهدِ ديكٍ يرقدُ على البيض، وانتظروا أن يُقْلِعَ عن تصرُّفاتِه.

مرَّت الأيامُ ولَمْ يَفْقِسْ البيضُ، بَلْ فَسَد.

استاءَتْ منه الدجاجاتُ بِسببِ فِعْلَته هذه، وزهدَتْ فيه، ورَفَضَتْ أن يَقْرَبَها، وامتنعت عن وضعِ البيض، وتَجَمَّعَ الديوكُ عليه ونتفوا ريشَه.

فصارَ كالأجربِ وسطَ طيورِ العشة.

حِسابٌ خَفِيّ

كنتُ أجدُ لذةً في مزاحمةِ النساءِ عند ركوبِ وسائلِ المواصلات، ومُلامَسَتِهنَّ بأناملِ خفيفة، وأسعدُ كثيرًا إِنْ صَفَعَتْني إحداهُنَّ، فتثيرُ رَغْبَتي.

أيضًا كنتُ أسهرُ الليالي الطوال أتلاعبُ بقلوبِ الضعيفاتِ منهن على صفحاتِ الشاشةِ الزرقاء لِأُوقِعُهن في حَبَائِلي، إلى أن دَخَلَتْ لي زَوْجتي بحسابٍ خفيّ لِتُخْبِرُني أَنها أَرْمَلَة.

مَهَمَّة خَطِيرة

قرعٌ على البابِ بإلحاحٍ شديدٍ، تقوم على أثرِه سيدةٌ بكلِ غَضَبٍ لتفتحَ البابَ، وَجَدَتْ أحَدَهم يَطْلُبُ حَسَنةً، نَهَرَتْهُ بِشِدةٍ بِحُجَّةِ أنه عَطَّلها عن مهامِها، رَجَعَتْ إلى المطبخِ مَرَّةً أُخري تَحْمِل قِطَّها الذي تُدلِّلَه، لِتتابعَ طَهْي وَجْبَتِه للغَدَاء.

أنين فضفضات

التَقَيْنَ بعد يوم طويل، قَضَيْنَه في رحلةٍ بعيدًا عن المنزل، هُنَّ ثلاثُ بناتٍ تقدم بهِنَّ العُمر، ها هنَّ يَخْرُجْنَّ بِمُفْرَدِهِنَّ للمرةِ الأولى بعد وفاةِ والدهن القاسي، ولأول مرة يتنفسنَ هواءَ الحُرية، فجلسنَ يحْكِينَ بصدق، ماذا فعلت كُلٌ مِنهُنَّ طُوالَ اليوم .

مَها : خرجتُ إلى الشاطئ، وارتديت (المايوه) ولأول مرة أكتشف أنَّ لجسدي أنوثة فاقت (هِند رُستم)، كُنت أتلذذ بنظرات الرجال الشهوانية إلى مفاتني، ول معاكساتهم لي.

أحلام : أما أنا فدخلتُ أحد المطاعم الأنيقة، وتناولتُ غدائي المُفضل، ثم اشتريتُ بنطالات (جينز سكيني) وبلوزات (كت دون أكمام) ، أيضاً اشتريت ملابس كاشفة من تلك التي كان مُحرمًا علينا ارتداؤها.

بعد ذلك دخلتُ إلى السينما، اليوم في عامي الأربعين، أشاهد أجمل أفلام الحُب الرومانسية.

هناء : أما أنا، فلم أغادر المنزل، فتحت القنوات الفضائية، سرحتُ مع ذلك العالم الذي كان محظورا، شاهدتُ من خلاله لقطات ساخنة جدا، ولأول مرة أجدني أهدأ وأستكين.

صَرْخَةٌ مُدَوِّية

جاءت مُسْرِعة من المطبخ، وضعتْ له (البزازة)، أخذت تَطُبُّهُ بيدها، لم يَكُفَّ عن بكائه، أدارتْ المَرْوحةَ، رُبَّما الحَرُّ يُزعِجُهُ، فطارتْ الصورةُ في الهواءِ، فصرخت بهيستيريا تحاول اللِّحاقَ بها.

القِزْم

في حُجرة صغيرة بالدور الأرضي لإحدى البنايات، صرخت أول صرخاتي بسبب خروجي إلى الحياة. لكنني لم أكن كباقي الأطفال، وُلِدْتُّ أشْيَبًا، أُعاني من تَقَزُّمِ الأطراف، لا يتعدى طولي خمسين سنتيمترا.

منذ ولادتي وأنا أتكبد عناءًا شديدًا، في الحصولِ على الطعام، لم يكن من السهل أن يراني مَنْ هو بالشباك، عناء في الحصول على عمل، فلم تكن إمكاناتي تيسر لي ذلك.
لم أستطع الحصول على مسكن، فكل البنايات شاهقة مرتفعة الطول والتكلفة، حتى الملابس، لم أجد منها ما يستر عورتي، إلا بقايا العمالقة. لقد سبقوني إلى كل شيء، لا أجد لي مكانا في هذا الكوكب، وَدِدْتُّ لو أغافل أمي أثناء نومها، وأعود حيثما جئت، فربما أنزل في مكانٍ آخَرَ وفي زمنٍ آخَرَ أكثرَ آدمية.

الرحمة يارب

خَطَفَتْ وليدَها مسرعةً من يد الطبيب لتتأكد من صحة ما قال، كشفت عن كُنْهِهِ، أصابتها فاجعة.

أهذا الذي كانت تنتظره وتتمناه؟

أهذا الذي دَعَتْ اللهَ كثيرا أن يرزقها به؟

ابْنٌ بهذا الشكل: هل هو نِعمةٌ ؟ أَم نِقْمَة؟

ماذا ستفعل معه؟ وليس لديها من المعلوماتِ الكثير؟

بل ماذا ستقولُ لأسرتِها إن سألوها عن نوعه؟

هل ستقول ولدًا أم بنتًا؟

أيضا كيف ستحميه من المتطفلين ومن المتنمرين وهم كُثُرُ؟

الرحمة يارب

الحِمْلْ

انطلقت السيارةُ بطيئةَ كمن تحمل أطنانًا من الرملِ أو الأسمنت، تراصت فيها الرؤوسُ تثقلُ على أكتافِ حامليها، فذاك مُثْقَلٌ ومَهْمومٌ بابنه الذي تَمَّ حبسه ظلمًا، وهو مُعْدَمٌ خالي الوِفاضِ من أتعابِ المحامي أو كفالةٍ تمنحه الحياة .

وتلك مُثْقَلةٌ بابنها المعاق وقد وهِنَتْ قواها من حَمْلِه بعد أن بَلَغَ واشتد ساعده.

وذاك زائغُ العينين تترقب عينُه وَجَلاً كُلَّ مَنْ حَولَهُ وكأنهم يعلمون بطْحَتَه.

بينما يجلسُ في آخرِ السيارة شابٌ قد غزا الشيبُ شَعْرَه، هَمًّا بعد أن تَرَكَ تَعْليمَه ليتحمل مسئوليةَ أسرته.

وصلت السيارةُ إلى مقرِّها الأخير ثم سارت مُسْرِعةً بعد أن أَفْرَغَتْ حُمُولَتَها.

موتٌ مُحَقَّقْ

شَغَفَها حُبًّا، ذاكَ الطبيبُ الجراحُ في أكبرِ مشفى بأمريكا، والذي تعرفت عليه عبر الفيسبوك. توطدت علاقتهما يوما بعد يوم، فقرر الارتباط بها . أبلغت والدتها بالأمر؛ فقد كانت يتيمة.

طلب منها إجراء فحوص وأشعات كاملة_ فحوص وتحاليل ما قبل الزواج_ وأن ترسلها له ليتمكن من استخراج أوراق الإقامة لها. وسريعا، كان قد أنهى أوراق استقدامها، وأرسل إليها فستان زفافها ليستقبلها به في المطار .

وما أن وصلت إليه حتى اختفت أخبارها تماما.

قَلَقَتْ الأُمُّ بصورةٍ غيرِ مسبوقة، ساورت الأمُّ المسكينةَ الشكوكُ في شخصية هذا الزوج، الذي أرسلت إليه ابنتها دون أن تتحقق من هويته، فلربما كان وكان وكان. حاولت الاتصال عليه، دون أي فائدة.

ما العمل؟ والقلق والشكوك تُساورها!!

استشارت محاميا، فلربما يكون مُتاجرا في الأعضاء البشرية، وقد سَلَّمَتْ له ابْنَتَها.

انهالت الدموعُ من عينيها وهي في حالة عجزٍ شديد.

هدَّأ المحامي من رَوعِها، وطلب منها أن تترك له التصرفَ في هذا الموضوع.

قَبِلَتْ على مَضَضْ، فلم يكن بيديها شيء لتفعله.

وجاءت البِشَارةُ من السفير المصري بأمريكا، بأن زوجها استقدمها لينقذها من موت محقق بسبب ورم في المخ، وقد تمت العملية بنجاح.

المصب

تَعْرِفُ جيدا أنها تَسْبِقُهُ بأعوامٍ عديدة، أدركت أنها سَتُقَدِّمُ له حنانًا ربما يفتقده، وربما حبًا يَدْعَمُه ويُؤازِره، لكن عندما اقتربت منه كانت المفاجأة.

لقد كان نيلَها، ومصَبَّ رُوحِها، ما إن آلَمَها شيءٌ إلا وارتمت بين راحتيه، وفي عينيه ارتشفت حُبًّا لم تَجِدَه قَبْلَه. كانت رُمُوشُه غِطاءً لها في عِزِ البرد، وكان رِضابُهُ زمزمًا في شِدةِ الحر، فهل تطلبه للزواج أم تنتظر جُرْأَتَهُ التي قد تَخُونَه؟

السايس

تشاجرتْ معه لأنه لم يحْجِزْ لهم مصيف الساحل الشمالي هذا العام، ولأنه لم يدفع مصاريفَ المدرسةِ الانترناشونال للولد، اضْطُرتْ إلى اقتراض المبلغ من والدِتها، لقد بَعُدَتْ المسافة بينهما كثيرا، أين التفاهم؟ أين الود؟ فاجأها بصفعة على وجهها لأنها سَبَّتْهُ بِأُمِّه، فجمعت بعضَ أشيائها، وأخذت مفاتيح السيارة وخرجت مسرعة. وقفت أمام الجراج تنادي السايس، فوجدته وزوجته يشاهدان التلفاز وهي تستند على كتفه، والابتسامة تعلو وجهيهما!!

قُبح

رأيتُها تَمُرُّ أمامي، تمشي بصعوبة، وعندما اقْتَرَبَتْ أكثرَ رأيت إعاقة بِيدها، وظَهَرَ قُبْحٌ شديدٌ بوجهها. ولم يمنع ذلك من التفافِ الذكور حولها فور نُزولِها أسفلَ السيارة.

تزداد جمالًا

يقِفُ أمامها مُتيَّمًا، يَرْفِق بها، يعتني بكلِ تفاصيلها. لا يهِمُّه عمرها، بل يُدرِكُ قِيمَتَها جيدًا، فهي تزدادُ جمالًا كلما كَبُرَتْ في العمر، أما هي فَتَعْشَقُ لمساتِه الحانية.

شَرَاهَة

فَزِعَ مِنْ نَومِه على صوتِ الهاتف، يَرِنُّ مرارًا وتكرارًا، انْتَفَضَ مذعورًا، منذ زمنٍ لَمْ يسمعْ صَوْتَه، فقد اكتسَح مَكانَه الهاتِفُ المحمول.

رَدَّ سريعًا: مين معايا؟

أجابه: أنا أمين بقسم شرطة النزهة

–عايز مين؟

أجابه: لكَ قريبة تُدْعَى "نهاد" بِحَوْزَتِنا الآن، وقد أُلْقِيَ القبضُ عليها أثناءَ حملةٍ على شُقَقِ الدعارةِ بالمنطقة.

أجابه مُتَلَعْثِمًا: إنت بتقول إيه؟ أكيد حضرتك طلبت رقمي بالغلط.

فأعادَ عليه الثمانيةَ أرقامٍ، وهو يتوجسُ خِيفةً بين كلِ رقمٍ والذي يليه، يتمنى أن يكون أحدُ الأرقامِ قد لمسه بالخطأ، لكن للأسف خابَ ظَنُّه.

ردَّ عليه مُسرعًا: دقايق وهكون عندك.

ارتدى ملابسه سريعًا، اتَّصلَ على المحامي، وطلب منه أن يلحقَ به إلى هناك.

نظر إليها نظراتٍ غريبة مخْتَلِطة بين الدهشةِ والاستغراب والاستحقار والرأفة.

رآها فتاةَ ليلٍ، شَرِهَةً للرجالِ، ترتدي ملابسَ لَمْ يرها بها قبل الآن، وتضعُ مساحيقًا تُلَطِّخُ وجهها.

بعد إنهاء التحقيق طلب المحامي الإفراج عنها بضمانِ محلِّ إقامتِها، معتمدًا على خَطَأٍ في إجراءاتِ القبض.

وفي المنزلِ حاول أن يُهدِّئُ من رَوْعِها، بعد أن كانت هي من تهدئ من رَوْعِه في طفولته، فاجأته برغبتِها فيه.

راودته عن نفسِه رفضَ، هدَّدَتْهُ بأنه إن لم يقبلْ فستستمر في غيِها.

ونَسِيتُ ابتسامتي

بدأتْ تُطِلُّ مِن جديدٍ، لكنها بَدَتْ كشمسِ شتاءٍ أَخْفَتْ نُورَها الغيومُ، حاولت أن تَرْسُم ابتسامتَها المعتادة، لكنها فَقَدَتْ سِن ريشَتِها.

أخذت تتذكر كيف كان شَكْلُها وكيفَ كانت تبدو بها، منذ زمنٍ بعيدٍ لم تبتسم من قلبِها.

نَظَرتْ في المرآة، وحاولَتْ أن تبتسمَ مجددًا، هل كانت انفراجتها بسيطة؟ أم أوسعَ قليلًا مع ظهور لأسنانِها الجميلة وشفاهِها الدقيقة؟

يُقالُ لها إن ابتسامتها كانت مِنْ نوعٍ وطرازٍ مختلف يملأ العينين ويزيدَهما إشراقًا، تكادُ تُجَنْ، إنها غير قادرة على تمثيلها، وكأنها تقلد غيرها، أمسكت بفرشاة شعرها وقَذَفَتْ بها المرآة، فتهشَّمَتْ إلى قِطَعٍ صغيرة ورَذَاذ.

العَلَمْ

كانتْ تَعْشَقُه، هو ابنُها لكنه حبٌّ من نوعٍ مختلف. استدعاه الواجبُ الوطنيُّ، فهرول لِتَلْبِيتِه. طلبت منه طلبًا غريبًا، طلبت منه أن يُلِحَّ على القائدِ أن يلبيه.

كانت صانعةً للملابس لكنها تنزفُ وطنيةً من كل شرايينها، أصَرَّت أن تصنع بيدها علم مصر لتشارك في صناعة النصر، فوافق.

أحضرتْ أقمشةَ العَلَمِ بألوانِها المتميزة، وأحسنت حياكته، ولم يدر بخلدها أنه سيأتي إليها مُحَمَّلًا بريحِ ولدِها.

كظمت غيظها وحُزْنَها بداخلها، رفضت أن تغسلَ العلمَ، وقررت أن تَحْتَفِظَ بعِطرِهِ الذي يفوقُ عُطُورَ فرنسا بأكْمَلِها.

أعادتْ حِياكَته من جديدٍ لتصنعَ منه ثوبًا لها لا تَخْلَعُه، لِتَشُمَّ من خلالِه رائحتِه.

تَفَتَّقَ الثوبُ مع مرور الزمن، وضَعُفَ بَصَرُها، لكن هل يرُدُّ الثوبُ بَصَرَها إذا أَلْقُوه عليها؟

حَقِيبةُ سَفَر

قَرَّرْتُ السَّفَرَ، حَزَمْتُ أمتعتي داخلَ حقيبةِ سَفَري، وأمْسَكْتُ بجوازِ سفري، طلبتُ سيارة لِتوصِلَني إلى المطار، وقفتُ بُرهة أراجعُ ما دَشَّنْتُه بحقيبةِ سفري وما قد أكون نَسِيتُه.

لقد كانت أشيائي قليلةً، وما كان يثقلها سِوَى ذِكرياتِك.

الغمامة

دَخَلَتْ دُكَّاني صباحًا بهالةٍ من الغَمام، أَلْقَتْ داخلَ سلَّتِها أشياءً زادت الغمامَ كثافةً، وأخذت تُتَمْتِمُ بكلماتٍ وكأنها تَعويذَةُ ساحرةٍ مُخَضْرَمة، تطوفُ وتُكَرِّرُها سَبعْ مرات. كانت جميلةً إلى درجةٍ تفوق الخيال، سَرَقَتْ عقلي..سَرَقَتْ قلبي..ثم سَرَقَتْ كلَّ شيء.

نزيف أوراق

كان يشعرُ بالتناقضِ الشديدِ بين ما يُمليه عليه ضميرُه، وبين المتوقع تِجاهَ ما يشعرُ به من استياء بسببِ معاملة والدِه له، فكلما أساء، أحسن إليه، وكلما عنَّفه أو ضربه أو ركله، أكرمه.

كان يَعْلَمُ جيدًا أن سلوكَهُ هذا سوف يجازيه عليه المولى سبحانه وتعالى. كانت غُرْفَتُه مَدْفَنَ أسرارِه، يُلقي بِأحزانِه في بئرٍ عميقٍ، لكنه كان يُفَضْفِضُ مع نفسِه، يَبوحُ كُلَّ يومٍ لأوراقِه بما يفيضُ به قلبُه، وتَذْرِفُ به عيناه، ويعلم جيدا أنه سبحانه وتعالى القادر على كَشْفِ الغمة، هو لا يعلم سِرَّ كراهيةِ والدِه له.

كان والده تُساوِرَه الشكوكُ نحوه، فقد أَنْجَبَتْهُ والدُته أثناءَ سفرِه إلى دولةٍ عربية.

كادَ يصابُ بالجنونِ من كَثْرةِ الشك، اقترح صديقٌ له أن يعمل له تحليلًا للحامضِ النووي ضِمن مجموعةٍ من التحاليلِ الأخرى حتى لا يَشْعُرَ بغَضَاضَة.

وفي اللحظة التي ظَهَرَتْ فيها النتيجة إيجابًا بالإثباتِ، دخل على ابنه ليَحْتَضِنَه نادمًا معتذرًا ليراه منكفئًا على مَكْتَبِه تَنْزِفُ أوراقُ يومياتِه ألمًا.

لا جديد

هي كلمةٌ دارِجَةٌ على أَلْسنَتِنا عندما نسأل عن الحال، فنقول لا جديد. فقط الآن أدركتُ أنها نعمة، فالجديد كما يكون بِشارَةَ خَيرٍ ، فإنه بنفس النسبة قد يكون شرًا أو اختبارًا قاسيًّا.

وبعد أن مَرَرْتُ بتجربةٍ في غايةِ القسوةِ والمرارةِ، شَعُرْتُ بفاجعةٍ تَغْزو قلبي. أمسكتُ بهاتفي، لعلي أجدُ من يمحو بأصابِعه أثارَ جروحٍ على الخدِ حفرتها الدموع، وتَصَفَّحْتُ قائمةَ الأسنانِ (أَقْصِدُ الأسماء)، فلم أجد سِنًّا واحدًا سليمًا، بل كان اعتراها التَّسوسُ الذي نَخِرَ فيها حتى وصل إلى العَصَبِ، رغم أن عدد أسناني قاربت على الخمسة آلاف.

أدركتُ حِينها أن ربي يدعوني إليه، فتوضأتُ وصليتُ ركعتين، أشكو وأبُثُّ فيهما هَمِّي وحُزنِي إليه.

مُسوَّدة عواطِف

تَوقَّفَ قِطارُ العُمرِ عند مَحَطَّةِ الذكرياتِ، تَزاحَمَتْ أفْكارٌ مُشَوَّشَةٌ عِنْدَ بوَّابةِ العقلِ، منها ما يُغادرُ الذاكرةَ، ومنها ما يُزاحِمُ على الدخول.

أفكارٌ وهَلاوِس وصُورٌ مُشَتَّتَةٌ بالداخل، لَمْ تَعُدْ تَسْتَبِينُ أيَّة صورةٍ منها بِوضُوح.

صُورٌ لِطفولةٍ بائسةٍ تتناثرُ فيها النزاعاتُ بين والدَيْها، وصورة اسْتَدْعَتْها وهي عِندَ طبيبٍ نفسيٍّ، تَعَجَّبَتْ منهما فهي المجني عليه وليست الجاني.

الصورةُ الثالثةُ لخيالِ رجلٍ أو كما يُخَيَّلُ لها، وقد ارْتَضَتْ به هاربةً من وساوسِ وتشويشِ الصورتين الأولى والثانية.

لَمْ يَمْسِكْ بريشةٍ، لَمْ يحاول أن يكونَ له أثرٌ للونٍ أو حتى لِظِل.

بل كانت صورتُه باهتةً أو تكادُ أن تكونَ مُعْتِمةً، لكنها قَبِلَتْ به إما على سبيلِ الهروبِ أو العِند.

داهَمَها صُداعٌ شديدٌ لهذا التزاحمِ وهذه الأفكار، نزلت بِثِقَلِها كُلِّه على لسانها، فلم يستطع أن يتحرك، فَتَجَمَّد مَكانَه.

المَقْهى

تعالى صوتُ السُّعالِ الصادرِ عنها وهي تُدَخِّنُ سيجارًا للمرةِ الأولى في حياتِها، وهي تجلسُ إلى طاولةٍ في آخرِ المقهى، فقد نَصَحَتْها صديقةٌ لها بتغييرِ نَمَطِ حياتِها كي تتزوج بآخر.

رَنَّ هاتفُها، مُصْدِرًا ضَجِيجًا من زَوجِها_ الذي قاضته في المحكمة_ يَسُبُّها، ويَلْعَنُها، ارتبكَتْ.. أنْزَلَتْ ساقَها التي كانت رَفَعَتْها على الأخرى، محاولةً جَذْبَ التَنُّورَةِ لِتُغَطِّي رُكْبَتيها دونَ فائدة. دَفَعَتْ الحسابَ وانصرفتْ مسرعة.

الخَوَنَةْ

كُلُّهُم خَوَنَةٌ، تآمروا عليّ، هذا الشَّحاذُ الذي يُلِحُّ في طَلَبِ الصدقةِ وإنْ لَمْ تَسْتَجِبْ له ينهالُ عَلَيكَ بالدعاء.

هذا السائقُ المُزْعِجُ الذي يُديرُ الكاسيتَ بِضوضاءَ صاخبةٍ لا مَعْنى لها.

حتى إطارُ السيارةِ الذي انفجر بِسببِ الزجاجِ المُتَكَسِّر في عَرَض الطريق.

كُلُّ هؤلاءِ الخونةِ أَفْسَدُوا عليَّ حَالتي النفسيةَ التي سَعِدَتْ بموعِدِك، لأَجِدْ مِنْكَ رسالةً تَعْتَذِرْ عن المَوعِدْ.

الغابةُ الصفراء

نعم هي غابةٌ لكنها جد مختلفة، ففي كافة الغابات الأخرى يعرف كلُّ حيوانٍ دورَه، وعلاقته بالحيواناتِ الأخرى دون زيفٍ أو خداع، لكنَّ في تلك الغابة، تولَّى الزَّعامةَ قردٌ أجربٌ وليس أسدًا كباقي الغابات، فالأسد لديه من القوةِ والجسارةِ ما يُمَكِّنه من ذلك.

استاءت البجعةُ الطيبةُ من هذا الوضعِ وراحت تَرْقُبُه من بعيد، فوجدت كثيرًا من الحيوانات تمتدح البقعَ الحمراءَ في جلدِه والتي يحُكَّها بالشجرةِ من حين لآخر، والتي لاتجعله يهدأ أو يستقر آمنًا، بل ويتغزلون بمؤخرته التي لا يختلف على قُبْحِها اثنان.

ولَّت البجعةُ الطيبةُ وجهها شطر السماء، ولم تكد تُرجِع البصر حتى شبَّ حريقٌ في أشجارِ الغابةِ لم يتمكن القردُ الهربَ بسببِه، لكنها طارت بسلام.

الضَّحِيَّة

شَرَعَ الضابطُ في سُؤالِها بمحضرِ الشرطة :

س: ما اسمك وسنك وعنوانك ؟

ج: اسمي ضحية، ضَحِيةُ هذا المجتمع. سني' عجوزٌ مسنٌ، توالت عليّ السنون تَتْرَى، عنواني: عنواني الحقيقي هو الوطن الذي لا أشعر فيه بالاضطهاد والظلم.

س: ما أقوالك فيما نُسِبَ إليكِ مِنْ قَتْلِ زوجكِ، والتمثيلِ بعضوه الذكري؟

ج: وهل يُسأل الظالم أم المظلوم؟

س: الإجابة على قدر السؤال لو سمحت.

ج: لقد عشت حياتي في بيت والدي أرتشف كأس الظلم والتفرقة، أراها تعيش بيننا رأي العين، يمارس أبي السلطة الذكورية على أمي ضربا وإهانة. كما يمارسها عليّ، فيمنح إخوتي الذكور ما يُحَرِّمُه عليّ، من حرية وإنفاق وتعليم.

س: وما علاقة ذلك بِجَريمَتِك؟

ج: لقد طفح الكيل، تزوجتُ لأتخلصَ من مرارةِ العيشِ في بيتِ أمي، وليس لأَجْتَرَّ نفسَ الكأسِ في البيتِ الذي اعتقدتُ بأنه سيكونُ مَلاذي، ومَوْطِنَ حريتي.

أخذَ زوجي يُعيدُ الْكَرَّةَ، يجبرني على تَحَمُّلِ تَفاهاتِهِ، ونزواتِه، يُنفقُ على العاهراتِ ما نحن أولى به أنا وأولادي، يقضي معهن لحظاتِ سعادتِه، ويخصُّنا بساعاتِ الذُّلِ والإهانةِ والخِدمة.

لم أشعر لحظةً أنني كباقي النساء، لا أسمعُ منه ما يُطْرِبُ أُذُني، لَمْ يُفاجئني يومًا في عيدِ ميلادي بقميصِ نوم مُغْرٍ يُجَدِّدُ أشواقَنا، لم يأخذني يومًا أنا والأولادَ للتَنَزُّهِ، وكأنني لم أُخْلَقْ إلا لِحَمْلِ الهموم.

وحين فاض بي أعلنتُ تَذَمُّري واحتجاجي، فما كان منه إلا أن خَلَعَ لوحًا من السريرِ وضربني بِه، وهمَّ بإخراجي مِنْ الشقة، ففاجأتُهُ بطعناتٍ مُتَكَرِّرةٍ في ظَهْرِه، أظنني أحسنتُ التصويبَ

فاخترقَتْ قلبَه، فوجدتُ سعادةً غامرةً وأنا أسْمَعُهُ يصرُخُ ولأولِ مرةٍ في حياتِه، ثم انقضضتُ على موضِعِ فَخْرِه واعْتِزَازِه، فَفَصلْتُه عن جَسَدِه، وقَطَّعتُه إِرَبًا، ولَمْ يَعُدْ يعنيني مَصِيري بعد ذلك.

البِشْعَة

نَزَلْتُ كخريجٍ جديدٍ يتدرب ضِمْنَ فريقِ عملٍ كبيرٍ إلى محافظةِ شمالِ سيناء لدراسةِ بعضِ عاداتِ وتقاليدِ البدو.

اسْتَقْلَلْنا سيارةً لِتَنْقِلُنا إلى هناك، على الجانبين وعلى طولِ الطريق، صحراء تنتشر بها الهضابُ على الجانبين، تَتَخَلَّلُها بعضُ الوديانِ في مِنْطَقَةِ العريش. ورأينا النساءَ وهي ترعى الأغنامَ. وتنتشر الخيامُ التي تتسعُ المسافةُ بينها حِفاظًا على الخصوصية.

وعندما وصلنا إلى هناك، نزلنا في الخيمةِ التي أُعِدَّت لنا، و في اليوم التالي نصحني زملائي أن أراقبَ الأمرَ من بعيدٍ في البداية، حتى أتعرفَ على طبيعةِ هذا المجتمع عن كَثَبْ.

كنت أستمع إليهم بإنصات، وترقب عيناي كُلَّ شيء، حتى الأشياء الدقيقة.

في اليوم التالي بدأتُ في تطبيقِ الحالةِ التي كُلفت بدراستها، فوجئتُ أنه متهم، وقد صَدَرَتْ ضِدَّه عقوبةٌ ووجبَ تنفيذُها اليوم.

سألته: ماهي الجريمة موضع الاتهام؟

أجابني :لَمْ أفْعَلُ شيئًا..أنا مظلوم

سألته: ما هو العقاب الذي سيُطَبَّق عليك اليوم؟

أجابني : البِشْعَة.

سألته: وما البِشْعَة؟

أجابني : هو أسلوبٌ من أساليب التقاضي، يلجأُ إليه القاضي العرفي حين يعجزُ عن إثباتِ الحقِ بالطرقِ التقليدية، فيُحيلُها إلى القاضي المُبَشِّع؛ للفصلِ في الخلافِ القائمِ بين طرفي النزاع.

سألته: وكيف تتم؟

أجابني : وقد ظهرت عليه علاماتِ الارتباك: يقومُ المُبَشِّعُ بإمرار "سِكينٍ حادٍ" أو قطعةٍ من الحديدِ، كَظَهْرِ طاسةٍ بَعْدَ غَمْسِها في النارِ حتَّى الاحمرار ثم يتم تمريرُها على لسانِ المذنبِ، ويُتْرَكُ لبعضِ الوقت ثم يُتابِعُه المُبَشِّعُ، فإن تقرَّح لسانُه واحْتَرَقَ كان مُذْنِبًا أما إن كان بريئا فإنها تَمُرُّ عليه بسلام.

سألته: وما انْطِباعُكْ عن البِش...؟!!!

وقبل أن أُكْمِلْ جُمْلتي كان قد صَرَخَ بأعلى صوتِه، وهو يتخيلُ تأثيرَ اللهبِ وماذا سيفعلُ بلسانِه، وأنها قد تَقْضي عليه، أو قد تُشَوِّهُهُ تمامًا، صاح بفزع : سأعترف.

الحَلْوَى

خرجتْ (أمل) من محل الحلوى بعد أن اشترت لها أُمُّها كلَّ ما تريده، اقتربت منها طفلةٌ سمراءَ اللونِ، فقيرةً، تريدُ منها بعضَ الحلوى، نَهَرَتْها البنتُ ودفعتها بعيدًا.

شاهدتْ الأمُّ هذا المشهدَ فعاتبتْ ابْنتَها برفقٍ، قالت لها: ما ذنبُها إن كان الله خلقها سمراء اللون بينما أنتِ بيضاء، هي إنسانة مثلك.

شَعُرَتْ الطِّفْلةُ بالخجلِ واتجهت نحو نظيرتها السمراء، وتقاسمتْ معها الحلوى.

الكَنْزْ

تَقَابلَ الإخوةُ الثلاثة صُدفةً على متنِ الطائرة، تجاهلَ كلُّ منهم الآخر وأعطى ظَهْرَهُ لأخيه، منهم من أمسك بجريدةٍ يقرؤها، ومنهم مَنْ طلبَ طعامًا، ومنهم من تسامرَ مع مَنْ يُجاوِرُهُ. ولم تَمْض دقائقُ حتى أعلنت المضيفةُ عن وجودِ خللٍ في محرِكِ الطائرة، وعلى كل راكبٍ أن يلبسَ مِنْطادًا ويقفزُ مِنْ شُبَّاكِ الطائرة.

هُرِع الإخوةُ إلى بَعْضِهِم البعض، ولأول مرةٍ تتماسكُ أيديهم، وتكادُ قلوبُهم أن تقفز من صدورهم هَلَعًا مِنْ هولِ الموقف. أمسك كُلُّ منهم بِيَدِ الآخرِ، وقفزوا قَفْزَةَ رجلٍ واحدٍ، وسقطوا في البحر.

كان أحدُهم يُجيدُ السباحةَ، والثاني إلى حَدٍّ ما، أما الثالثُ فكان لا يَعرفُ العَوْمَ أصلًا. فكادَ أنْ يَغْرَقَ. نَزل الأخوان ليبحثا عنه، وأمسكا به وأخذا يَسْبَحان لأعلى.

وفي أثناء سِباحَتِهِم وَجَدوا لآلِئَ كثيرةً، ضَوؤها يَخْطِفُ الأبصار، تكادُ تُضيءُ قاعَ البحر.

أمسكوا باللآلئ وتقاسموها فيما بينهم، وعلموا أنهم بهذا عثروا على كَنْزَيْنِ لا كَنْزٍ واحد.

المُهْرَة

انطلقت المُهْرَة الأصيلة ذاتَ القوامِ العَرَبيِّ الممشوقِ في السباقِ وفازت بالمركزِ الأول دون منازع.

افتتن بها حصانٌ بلديٌّ لا ينتمي إلى نفسِ السُّلالَة، وتَزوَّجَها، وانتقلتْ إلى بيئتِه، فَراحَ يُحَمِّلُها الأثقالَ بما لا طاقةَ لها به، فَذَبُلَ جمالُها، وتاهت رشاقَتُها، وكثرت الجروحُ بِجِلْدِها الرقيقِ من شِدَّةِ ضربِ السَّوط على جَسَدِها الناعم لتجري بهذا الحِمْلِ الثَّقيلِ، فسقطتْ على الأرضِ، ظنَّ أنها أصابَها العَجَزُ، فَفَكَّ عنها العربةَ وتركها وانصرف.

مَرَّ بها رَجُلٌّ ارستقراطيٌّ بسيارتِه، سَمِعَ أنينَها، ورأى الدموعَ الحائرةَ في عينيها، طلبَ لها سيارةَ إسعافِ الخيولِ الخاصَّة به، وما هي إلا أسابيع تغذت فيها اهتمامًا وحبًّا وحنانًا حتى استعادتْ روحَها الضائعة.

جُرْحٌ غائرْ

ذَهبتْ امرأةٌ إلى زوجِها بمحلِ النِّجَارة الذي يمْلِكُه، تستعطفه وتتودَّدْ إليه كي يرُدَّها، بعد أن استدرجها آخرُ بمعسولِ الكلامِ، فتركت زوجها ثم غرر بها الآخر.

المرأة: اسْتحْلِفُكَ بالله أن تُسامحني.

النجار: ينظر إليها بِطَرْفِ عينه ويستكمل عَمَلَه.

المرأة: أعرف أنني أخطأتُ بِحَقِكَ وجرحتُ كرامتِك.

النجار: لم ينبس ببنتِ شِفَة، إنما أشار لها أن تنظر إلى لوحٍ خشبيٍّ بعد أن خلع مِسمارًا كبيرًا منه، وترك مكانَه جُرْحًا غائرًا ينزِف.

حَقائِبُ خَاوِيَةٌ

عُرِفَتْ بأنها صاحبةُ القلمِ المُتميز، أمْسَكَتْ بِقَلَمِها لِتكتُبَ رثاءً لزوجِها، حاولت أن تُعَبِّر عن عواطفِها الجيَّاشَة، وعن مشاعرِ الفَقْدِ التي تَئِنُّ بداخلِها، لكنها وجدتْ نفسَها تَكْتُبْ: الموتُ هو الحقيقةُ الثابتة في حياتِنا، لَكِنَّنا نُحاوِلُ جاهدين تجاهُلَها، فالإنسانُ يبدأ نَبْشَ قَبْرِه مُنْذُ مولدِه، يبدأُ العدَّ التنازليّ لعمرِه الموقوتِ، وما حياتُه إلا حوادثُ عارضةٌ، تَعَلَّمَ أم لم يتَعَلَّمْ، حزينًا كان أم مسرورًا، تعيسًا كان أم سعيدًا، مريضًا كان أم مُعافىً، لِيصِلَ إلى مثواهُ الأخيرِ مُحَمَّلًا بحقائبَ ثقيلةً كانت أم خفيفةً، فلن يَحْمِلَها عنه غيرُه، وهو غير مُطالبٍ في جميعِ مَحطَّاتِ عمرِه سوى بِكيفيةِ مَلْءِ تلك الحقائبِ.

رُفَاتُ إنسان

جَمَعَنا مكانٌ واحدٌ للمبيتِ، والعملِ، لقد أصبح الشارعُ بالنسبةِ لنا أُسلوبَ حياة. نعمل في جماعاتٍ، نأكُل في جماعاتٍ، نَهْرُبُ في جماعات.

انا ابنُ الشارع، أَلْتَقِمُ فُتَاتَهُ، وأَفْتَرِشُ رَصِيفَه، كُلَّ ما سَمِعْتُه عن أمي أنها أَلْقَتْ بي بين السياراتِ، وسط الكلاب، لم تَعْبَأْ بما سيواجهني، بل بالقطعِ كانت تتمنَّى مَوْتي، كُلُّ ما كان يعنيها أن تُخْفِيَ دليلَ خِسَّتِها، وعَدَمِ براءتِها، وتَتْرُكُني أنا بِضَعْفِي هذا أدفع الثمن دومًا؛ أدفعُ ثمنَ جريمةٍ لم أرتكبها، وأُوصَمُ بِعُهْرِها.

أَرْضَعَتْنِي الكِلابُ والماعزُ، وربَّتْنِي الأرصفة.

إلى أن الْتَقَطَني أحدُ تجارِ الشوارع، لِأُكْمِلَ دَفْعَ ضريبةِ هذه الساقطِةِ، فَسَبَّبَ لي عاهةً بِرِجلي كَيْ أَسْتَدِرَّ عَطْفَ مَنْ يراني، وأعود له وزملائي في نهايةِ اليومِ بالحصيلة، ولَيْتَه كان يُطْعِمُني أو يكسوني، بل كان هذا مُوَكَّلًا لأصحابِ القلوبِ الرحيمة، أما

المبيتُ فكان تحتَ مِظَلَّةِ أحدِ الكباري التي نستظلها أحيانا من لَظَى الشمسِ أو غزارةِ الأمطارِ.

وحين يَعُمُّ الظلامُ كُنَّا نَسْتَغِلُّها أوكارًا لنا للنومِ في أحدِ أركانِها.

وما أقسى الليلَ!!، وما أشد غدر الظلام!!، كان علي الصغار منا أن ينساقوا لوطأةِ ورغباتِ الكبار، فيقضوا خلالنا شهوتَهم ويريحوا غرائزَهم، والويلُ كل الويل لِمَنْ يعترض أو يُحاولُ الفرارَ منهم، فالعِقابُ طَعنةٌ في البطنِ أو العُنُق، فما أذلَّ الاستسلامَ حين يَفِيضُ بِكَ العَجْزُ.

فأنت مُباحٌ ومُسْتهانٌ بك، لا رأْي لكَ ولا خِيارَ، كالحيوانِ، بَلْ لَمْ تَرْقَ لِرُتْبَةِ حيوان.

ذاتَ مرةٍ هَجَمَتْ علينا سيارةُ الشرطةِ وجَمَعَتْ مُعْظَمَنا ، وزَجَّتْ بنا في إحدى الاصلاحيَّاتْ، سَعِدتُ كثيرًا، أخيرًا وجدتُ مأوىً، أخيرًا لن أحملَ مَشَقَّة العُثورِ على طعام.

أيامٌ وفَطِنْتُ إلى ضِيقِ أُفُقي، وعَدَمِ صِحَةِ تفكيري. إنها ليست دُورَ رعايةٍ كما يُطلقون عليها، وكما يكتبونَ على لافِتَتِها، بل هي دُورٌ أكْبَرُ للشِّحاذةِ، وجَمْعِ التَّبَرُّعات، ولا يَنالُنا منها سوى سوءِ المعاملةِ واغتيالِ الكرامة.

قَرَّرْتُ الهربَ، لكن كانت هناك حراسةٌ مشددةٌ، وكلما أمسكوا بي أذاقوني مُرَّ العِقاب.

إلى أن فَكَّرْتُ في القفزِ داخلَ سيارةِ جمعِ القمامة، لكني لَمْ أَسْلَم من وخزاتِ أسياخِ التفتيشِ لتنال مني وأَلْفِظُ أنفاسي الأخيرة.

الكاميرا

كنتُ أسيرُ بالسيارة وبجانبي الصحفيُّ اللامعُ المشهور في طَريقِنا إلى أحدِ الفنانين المشهورين لتصويرِ حلقةٍ معه.

استوقف الكاميرا مشهدٌ لأحدِ البسطاءِ يجلس على جانبِ الطريق، أشعثَ أغبرَ تكاد لا تُميِّزُ ملامِحَهُ من الترابِ والذبابِ وكأنَّه تَراصَّ لِيَطْعَمَ مِنْ رحيقِ وجْهِهِ. استوقفني هذا الرجل حين توجَّه بعد أن نالَ منه الجُوعُ مَبْلَغَهُ، إلى أحدِ مَحالِّ البِقالَةِ الذي مَنَحَه رَغِيفًا وبعضَ الطعام. فرجع إلى مكانِهِ، لِأَجِدَ جَيْشًا من حيواناتِ الشارعِ في انتظاره، لَمْ يَهُشُّ أيًّا منهم بعيدًا بَلْ جَلَسَ معهم وكأنه يدعوهم إلى وليمة. أَخَذَتْ الكاميرا تلتقطُ له ولهم الصورَ في حالة إعْجابٍ ودهشةٍ شديدين.

أثار قريحتي الصحفيةَ الفضولُ لمعرفةِ هذا الرجل عن كَثَبْ، ذهبت إلى أحد الحلاقين، وطلبتُ منه أن يأتي معي لِيُصْلِحَ من هيئةِ هذا الرجل وقد كان، فبدا رجلًا أربعينيًّا وقورًا، طلبتُ

منه أن أُحْضِرَ له ملابسَ جديدة، فرفضَ، لمحْتُه يلْبَسُ سلسلةً تَحْمِلُ صورةَ طفلةٍ صغيرة.

أَمَّا بَعْدُ

القاضي العُرفي :

بعد قراءةِ الشكوى المقدمة من الزوج وبعد شهادة الشهود قَرَّرْنا الحكم بالغرامة على المُدعى عليها، وطردها وعائلتها من القبيلة لما ارتكبته من فُحشٍ بيِّن.

المدعى عليها:

حضرة القاضي العرفي بعد السلام والتحية لكم ولمجلسكم الموقر، أما بعد :

أعترف بجرمي الذي ارتكبتُ، لكنه هو من دفعني إلى هذا، إن الحديث عن أمورِ الفراشِ أمرٌ مباحٌ، وإلا لما نَظَّمَه رسولُنا الكريم. لقد تزوجتُه لأُعِفَّ نفسي كما ورد في نصوص قرآنية وأحاديث نبوية، فالزواج يَصُونُ المَرْءَ ويَعِفُّه عنِ الوقوعِ فى الزللِ والمحرمات.

القاضي العُرفي:

وماذا بعد؟

المدعى عليها:

كان عليه أن يَقْرأَ ويَعْرِفَ ويَتَعَلَّم، كما نزلت أول آية في القرآن " اقرأ" وكما ورد فى حديث رسولنا الكريم" ولا تَرْتَمُوا على نسائِكُم كالبهائِم. "

إن لِغُرَفِ النَّوْمِ أسْرارًا لا يَعْلَمُها إلا من يَعْتَلُون هذه القطعةَ السِّحْرِيَّة، البعض يخرجُ منها وقد تبدَّلَ حالَه، ونزح عنه ستائر الهم، وتَخَلَّصَ مِنْ كُلِّ مُشْكِلاتِه، أمَّا البعض الآخر فتزيدُه هذه الخُلْوةُ كآبةً، تَجْعَلُهُ يَكْرَهُ فِكْرَةِ مناداتِه أو دعوتِه إلى دخولِها، وكأنَّ مَلَكَ المَوْتِ يقفُ له هناكَ لِيقْبِضَه.

هذا الرجلُ لمْ يَعْتَرِفْ بِحقي يومًا، تَجاهَلني، أهْمَلَني، جَعَلَني لُقْمَةَ سائغةً سهلةً لأي جوعان، لكل من يُشْعِرُني بِأُنُوثَتي، ولمنْ يرقى بي إلى السماء بِكلمة غَزَل.

كم قَضَيتُ شهورًا وسنواتٍ أَتَقَلَّبُ في مَضْجَعِي أرقًا وهمًا وغمًا، بينما يَغُطُّ هو في نومِه لا يُقْلِقُهُ شيء.

أحْضَرتُ له كُتُبًا لأَئِمةٍ كبارٍ معروفين لِينْهَلَ مِمَّا أفاضوا من عِلمِهم، فهم يشرحون ببساطةٍ كيف يتودد الزوجان إلى بعضِهما، فكان يتكاسَلُ حتى عن القراءة.

لقد كَرِهْتُه، كَرِهْتُ أنفاسَه، كَرِهْتُ مُلامَسَتِه لي، كَرِهْتُ وجودي معه في مَسْكنٍ واحد.

طلبتُ منه أن يُفارِقَني فَرَفَضَ، فبأي حق يطالبني أن أعيش معه بجسدي هذا الذي يَشْتَعِلُ رغبةً، بينما جَسَدَه قد مات وتَعَفَّن مِنْ سنين.

من أين له أن يُحاسبني!!، فلتعاقبه هو ياحضرة القاضي، فقد أماتني يوما بعد يوم ، لقد مات جسدي بأكملِه فَلَمْ يتبق لي سوى خروجِ الرُّوح.

القاضي العرفي: أخذ في الحوقلة والتمتمة ولم يرد.

غُرْفَة ضَيّقَة

في تلك الغرفةِ الضَّيقةِ المظلمةِ تَجَمَّعْنا، كُلٌّ أتى به إلى هنا شَأْنٌ مُخْتلِف، مِنَّا الفقيرُ المُعْدَم، ومنَّا ذَوُو الياقاتِ البيضاء. منَّا الصالِحُ، ومنَّا الطالحُ. منَّا من حاول أن يَغَيّر من نفسهِ، ومنَّا من ظلَّ مُعْوَجًّا.

كان أحدُهم، يطلبُ ماءً للوضوء وأخذ يدعونا للصلاة كي نَمْحُو تلكَ النقاطَ السوداءَ في صفحاتِنا، مِنَّا من استجابَ له ومِنَّا من أَعْرَضَ عنه، وتَمَسَّك بما اكتسبت يداه.

أيضا كان هناك حُضُورٌ مُمَيَّزٌ لأبناءِ إبليس الذين تجمعوا على الرذيلة، وخَلْقِ مزاجٍ خاص، من خلالِ تعاطي موادٍ نفسية، بلْ وكان يُتاجرُ فيها ويَبِيعُها لزملائِه.

كلُ هذه الأحداثِ تدورُ خلفَ قضبانٍ صغيرةٍ، ضَيِّقَة. وفجأة تتزلزل الأرض من أسفلنا ويذهبُ كُلٌ بما كَسَبَتْ يداه.

لحْظَةُ ضَعْف

اِرْتَمَتْ في حضنها وانهارت في البُكاء،

قالت: هل أخطأتُ لأنني صدقته، وَوَثَقْتُ به؟

أجابتها: لقد تعدت علاقتك به مرحلة الحُب بل نقول عِشْقٌ، أو وَلَهْ.

قالت : وهل يكون هذا جزائي؟!!

أجابتها: المشكلة في التناقض الذي يحمله الرجل بين جنباته، فهو يريدُ الحبَّ والمتعةَ والتفاني ممن تحبه، لكنه يُفَكِّرُ أَلْفَ مرة ويتراجع عن الزواجِ ممن ذاقها، ويتزوج من فتاةٍ صغيرةٍ في السنِ، ظنًا منه بأنها صفحةٌ بيضاء لم يلوثها أحدٌ من قبلِه.

قالت: وأين سأذهب من نظراتِ الناس والمجتمع بعد أن تخلَّى عني؟

أجابتها: هو مجتمع مُزْدَوِجِ الأحكام، يَقْبَلُ للرجل نفس ما يرفضه للبنت، رغم كون الخطأ واحدًا، يلخص المجتمع شرف البنت في طبقة رقيقة جدا قد تضيع لأسباب مختلفة، وليس في تربيتها وسلوكها.

أجابتها: تَعَلَّمي مِنْ خَطَئِك عزيزتي ولا تُعْطي مشاعِرَكِ بسخاءٍ لمن لا يستحقها.

المَغْناطِيس

رأيتُها بِأحلامي، كَمْ تمنيتُ رُؤيتَها أمامي، وها هي أحلامي تتحقق، أفاض عليّ الزمان برؤيتها، شَمَمْتُ عبيرَها فكأنها تنثرُ رذاذَ حُبٍّ، تملأ الجوَّ دِفْئًا وحبًّا، اتَّبَعْتُ خُطُواتَها وليتني ما فعلت إذ أنها تَخْلُفُ وراءها بُرادَةَ عشقٍ.

إحساسٌ غريبٌ يسري بِأوردتي وشراييني، مَشاعِرُ مُتَدَفِّقَة تَخْتَلِجُني فقط حين أكون بالقربِ مِنها، أو حتى تدور بِخَلَدِي. أشْعُرُ وكأنني دخلتُ مجالًا مغناطيسيًّا، يَشُدُّني إليها ..لا مهرب.

أحاولُ جاهِدًا الابتعاد، حتى أتخلصَ من هذا التأثيرِ المغناطيسيِّ لأجِدَ نفسي أبحثُ عنها من جديد. أَتَلَذَّذُ بهذا الشعور الذي ينتابُني وأنا إلى جِوارِها.

أتحدثُ إليها فتُثيرُني، أستمع إليها فأشْعُرُ بِجَوِّ الربيعِ، وأَشُمُّ أنفاسَهُ، تَتَسَرَّبُ أصواتُ زقزقةِ العصافيرِ إلى سمعي، أفترِشُ ذَبْذَبَاتِها سجادةً تطيرُ بي في الهواء. أيْقَظَتْ فِيَّ مشاعرَ كنتُ أعتقد أنها انتهت من سنين.

راقبتُها من بعيدٍ لعلَّني أصلُ إلى سرٍ يُهَدِّئ من رَوْعي، وجَدْتُها: مُنتهي البساطةِ، مُنتهى التعقيدِ، منتهى الحنان، مُنتهى القسوة. مُنتهى الحِكْمَةِ والرزانةِ، مُنتهى الجُنون، مُنتهى الجُمود، مُنتهى الرغبة وكأنها فتاةُ ليل.

أَغْبِطُ تلك الحالةَ التي تسيطر عَليَّ وتَقْتَحِمُني وأنا معها، أَوَدُّ أن يتوقفَ عِندها وقتي بلْ وعُمري، لا أريدُ أن أتحدثَ إلى غيرِها، ولا أنْ تتحدثَ هي إلى غيري.

صَدْمَتي، كانت حين عَرَفْتُ أن هذه الحالةُ تصيبُ كل من يَقْتَرِبَ منها، مغناطيسٌ قوِيُّ القُطْبَيْن يَجْذِبُ إليه أيَّ ذَكَرٍ تُسَوِّل له نفسُهُ المرورَ جانبَها، أو يَشُدُّه الشوقُ لسماعِ صوتِها، أو حتى يراسِلَها كتابةً، ولا يَنْجَذِب لأحد.

شِقٌّ مائل

تَعَجَّبْتُ لِتصرفاتِها، هي جارةٌ لي، وَلَدَتْ ذَكَرًا بعدَ ثلاثِ بنات، وكمْ سَعِدَتْ حين لَقَّبُوها بِكُنْيتِه، اعتبرته ابنًا وأخًا وزوجًا، رغم أن زوجَها مازال على قيدِ الحياة.

ساعدتْهُ في شراءِ شقةٍ، وفي تجهيزها، في حين أهْملتْ تجهيزَ الفتيات، كانت تُمَيِّزهُ عن إخواته في كُلِّ شيء.

كنتُ أراها مريضةً نَفْسِيَّة رغمَ ظهورِها بِكاملِ عافيتِها. عَزَلَتْهُ عن إخواتِه البنات، حَرَّضَتْه على عدمِ زيارتِهن أو التَّدَخُّل في مشاكِلِهن الزوجية، قَوْقَعَتْه داخلَ إطارِها حتى تستأثرَ بحبِه لِنَفْسِها.

إلى أن كانت الفاجعة، حادثُ تصادمٍ مُرَوِّع، انتقلتْ روحُه إلى بارئِها بعد أن تَفَحَّم جَسَدُه إثرَ اصطدامِ سيارةِ نقلٍ ثقيلٍ بسيارتِه من الخلف، أدت إلى انْفِجارِ تنكِ البنزين، وتَحَوُّل السيارةِ إلى قطعةِ معدنٍ معوجةٍ سوداء.

جاءت الاسعاف ونقلتْ جُثَثَ الموتي إلى المشرحة، لم يستوعبْ إخوتَه ولا أهل زوجتِه هذا المشهد الرهيب، الكل بين صراخٍ وذهولٍ وعويل، ومنهم من سقط مغشيًّا عليه من هولِ الموقف. إلا جارتي ظهرتْ بثباتٍ غريبٍ، لا دموع، لا صراخ، لا انطباعات.

وكأنه يومُ المفاجآت بالنسبةِ لي، لقد سمعتُ أحدَ أقاربِ زوجِها يُعَنِّفها بشدة بل وينهرها، لأنها لم تخبرْ زوجَها المريض بوفاةِ ابنه، أي عُذرٍ هذا الذي يمنع أبًا من دفنِ ابنه بيدهِ، وهو على قيدِ الحياة؟

وفجأةً ظهر الأب في مشهدٍ تَدْمَي له الأعينُ، وتَعْتَصِرُ له القلوبُ، جرى إليه أناسٌ من الشارعِ ليتكئَ عليهم بعد أن رَقُّوا لحالِه، وبَكَوْا لبكائِه، مَشْهَدٌ مأْساوِيٌّ لا أعتقد أن يأتي به أعظمُ المخرجين. أما هي فقد كسى الجُحُودُ قلبَها.

وَسْوَسَة

-نَظَرَ إليها والشررُ يتطايرُ من عينيه، أما زلتِ تعاندينني، أما آن الأوانُ لتخضعي وتستسلمي؟!!

-لا لن أستسلم

-انْصَرَفَ كُلُّ من حولَك عنكِ، وصِرتِ وحيدةً.

-لا بل معي ربي سيهديني

-لكِنَّكِ في حاجةٍ إلى من يَحْتضِنك، ويحتويكِ، في حاجةٍ إلى الحب.

-بل استمده من كل من حولي، فأنا مُحِبَّةٌ للناسِ والحياة.

-قال وهو نافدُ الصبر، لقد تَعَرَّضْتِ للغِواية أكثرَ من مِائة مَرَّة، مواقِفُ لا تَعْبُرُها أنثى بسلام، وأنتِ مكتملةُ الأُنوثة، كيف ذلك؟

-أعوذ برب الناس منك ومن وَساوِسك.

-يحترق

الصَّدمة

ركبت سيارة في طريق عودتي من زيارة عائلية، رجعت إلى آخر السيارة واخترت كرسيًّا إلى جوار النافذة، لمحتُ سيدةً في الكرسيِّ الثاني، تَرَكَ التعبُ والإرهاقُ تِلالًا فوق أجفانِها، فغطَّت في نومٍ عميق. فَتَحْتْ عينَها فجأة على أناملَ تَتَحَرَّك على فَخِذِها، لم تتدارك الأمرَ في البداية، كانت بينَ النومِ واليقظة، حتى أحسَّتْ بجسدها يقْشَعِرُّ بفضلِ تلك اللمسات، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تتلفظ بأسوإِ الألفاظِ صوب من قام بهذا الفعل.

ذُهِلتُ من رِدَّة فعل الركاب لهذا المشهد، فقد خذلوني كثيرًا.

عَيْنانِ مُحَمْلِقَتان

نَظَرَ إليه وهو يبكي، بشفتيه المُرْتَعِشَتينِ، وعينيه المُحَمْلِقَتَينِ، ألا تعرفني حقا؟ لقد كنا نلعبُ معًا بالأمسِ، وتُطْعِمُني في فمي، ألن تلعب معي مَرَّة أخري، أنا سُنْسُنْ ياجدي، وارتمَى في حِضْنِه.

ذكريات

جَلَسَتْ في المَقْهى، تدس اللّآيَ في فَمِها، يتصاعَدُ دُخانٌ يكاد يُخْفِي ملامِح وَجْهِهَا، ضجيجُ أصواتِ الدومينو، واللاعبين، وصوتُ الست أم كلثوم، يَدْعُونَها إلى الحنين. حَشْرَجَةُ واختناقُ صوتِها بالدموع، تتمنى أن تَسْحَقَ هذه الضوضاءُ أوجاعَ ذكرياتٍ اختنقت بها وتُحاصِرُها.

بيتٌ مِنْ خَشَبْ

أَمْسَكَ بِرِيشَتِه، وباليت الألوان الخاصة به، وبدأ يَرْسُم. رَسَمَ في لوحةٍ قَفَصًا للعصافير، وبيتًا خشبيًّا بداخلِه، وفي أخرى رَسَمَ عُصْفورةً منزوعةَ الريشِ، وكأن أحدًا قَصْقَصَ رِيشَها، ورَسَمَ عُصْفورًا زاهيَ الألوان.

وفي لوحةٍ تالية حَبَسَ تلك العصفورةَ المسكينةَ داخلَ البيتِ الخشبيِّ الضَّيِّقِ، كما رَسَمَ هذا العصفور المُعْجَبَ بِنَفسِه، وهو يَطِيرُ ويرجِعُ إلى القفصِ كيفما يشاء، ثم يدخل إلى البيتِ الخشبيِّ لدقائقَ معدودةٍ لِيَقْضِيَ منها وَطَرًا، وكأنه مَفْروضٌ عليه، دون أدنى رَغْبَةٍ منه في ذلك.

وفي لوحةٍ جديدةٍ رَسَمَ تلك العُصفورةَ المسكينةَ وقد ماتت داخلَ بيتِها الخَشَبِيِّ الذي لا حياةَ فيه، سِوى حياةٍ يملؤها الانتظارُ المُمِلُّ، الذي فضلت الموتَ عليه.

فَغَرِقَتْ عيناهُ بالدموعِ، لكنَّ تلك الدموعَ الساخنةَ لا تُرْجِعُ شيئًا قد وَلَّى وفات.

مفترق طرق

نَظَرتْ إليه والدموعُ مِلءَ عينيها: ماذا فعلتُ لكَ كي تتزوجَ بأخرى؟

قال : لم أرَ منكِ إلا كل خير

هو: أنا إنسان ولستُ حكرًا على أحد، ولستُ مِلْكًا لكِ أو لغيرِك.

لقد أحببتُها كما أحببتُكِ، ولن أُقصِّر مَعَكِ في شيء، ولا مع أولادِنا، وسوف أقسِّم مالي، ووقتي بينكما، والأمر لكِ، إن شئتِ أكملتِ معي، وإن شئتِ وهبتكِ حُرِّيتَك.

هي: دعني أفكر

هو: هل تستطيعين الاستغناء عني؟

هي: إذن فَلِمَ تُخَيِّرُني؟

هو : حتى لا تظني أني أجبركِ على الحياةِ معي، إن كنتِ لا تريدين، أما أنا فلا أستطيع الحياةَ بدونِك.

هي: ولا أنا أيضًا

عناق شديد مع دموع**!!**

الفَرَاشَة

رَأَتْهُ وهو يَعزِفُ على جِيتاره، حامَتْ حَوله، اضْطَرَبتْ حَرَكَةُ طيرانِها ، فَسَقَطَتْ على جِيتارِه، فاضْطَرَبَتْ نَغَمَتُهُ حِينَ رآها، وأَبَى ألاَّ يَعْزِفَ ثانيةً إلا وهي بجوارِه.

أَجْمَلُ أيامِ حَياتِي

لأولِ مرَّة في حياتي تَتَغيَّرُ مفاهيمي وأحاسيسي عن الزواج، كُنت في زواجي السابق أشْعُرُ بِفُتورٍ وعدمِ رغبة، قد يكون بسبب خلافاتِنا المستمرة، وقد يكون بسبب قِلَّةِ دَخْلي، وقد يكون بسببِ صياحِها المستمر وصوتِها العالي الثَّرْثار.

المُهِمُّ لم أكَنْ أشعرُ أني بكاملِ عافيتي، لدرجة أنني اقتصصتُ جزءًا من دخلي القليلِ لشراءِ بعضِ حبوبِ السعادة، وليتها كانت سارية المفعول، لدرجة أنَّ زوجتي أقْنَعَتْني بضَعفي وبأني غير قادر على تلبيةِ احتياجاتِها، كما جَعلَتْني أَتَيَقَّنُ من خلالِ نظراتِها المُتأفِّفَةِ، وحاجبيها المتقوسين دائما أنني لا أصلح إلا لشيئين:

أن أُلْقي بأكياسِ القمامةِ في طريقي وشراء طلبات المنزل،

وإما أن أكون كَفُوطةٍ تَمْسِكُ بها الأواني الساخنةَ، أو تَمْسَحُ بها ما وقع على سطحِ البوتوجاز أثناءَ الطهي.

مرَّت فترةٌ طويلةٌ بعدَ الطلاقِ، وأنا أُركِّزُ في عملي، وأبتعدُ عن جميعِ النساء، حتى أنني طلبت نقلي إلى إحدى الإدارات التي تخلو من النساء، وقد كان لي ذلك.

وذات يومٍ وأثناء خُروجي من مكتبي، تصادمتُ مع زميلةٍ لي تدخل إلي مكتبنا، وهي تحمل علبة من الشوكولاتة تُوَزِّعُها فَرِحةً بنجاحِها، ودون قصد لمست يدي صدرَها. وهنا انكشفت كل الأكاذيب المزعومة التي لَفَّقَتها لي زوجتي السابقة، ودسَّتها لي في ذاكرتي البالية، لكن أين هي الآن، لقد تَدَفَّقَ الدَّمُ في جسدي، وارْتَفَعَتْ درجةُ حرارتي، وأحْسَسْتُ برجولتي، دون أي منشطاتٍ أو سُمومٍ أبْلَعُها، تقدمت إلى زميلتي للزواج منها، وقد كان، وعشت أجمل أيام حياتي.

جد مختلفة

ذَهَبَتْ إليه كعادتِها عندما تتشاجرُ مع زَوْجِها، تَرْبُطُ حقيبةَ ملابِسِها وحقيبةً أخرى للأولاد. لكن هذه المرَّةَ تركتْ أبناءَها خارجَ الحُجرة، لا تُريدَهم أن يَرَوْها على هذه الحالة.

كانت المشاجراتُ السَّابقةُ دومًا على مصروفِ البيت، فهي لا تعمل، وتَبْذُلُ قَصَارى جُهدِها لتدبيرِ مصاريفِ وشئونِ المنزل.

أما هذه المرَّة فالمشكلةُ جَدٌّ مختلفة، لقد كَسَرَ ظَهرَها، وأخْضَعَ أَنْفَها، لقد شَعُرَت أنه سُرِقَ منها إلى الأبد، فانهارت ولم تستطع التحملَ أكثَرَ من ذلك، فَضْفَضَتْ إليه بكل ما يوجِعُها كَعادَتِها، واستمع إليها كعادتِه، فلم يكن يَسْتَمِعُ إليها غيرُه، ثم قرأتْ له الفاتحةَ، وانصرفت.

شَوْق

نَظَرَ إليها بملءِ العين، فقد افْتَقَدَها كثيرًا، اقْتَرَبَ أَكْثَرَ، قبَّل وَجْنَتَيْها، فَلَمْ تَعْتَرِضْ، تَجَرَّأَ أكثر وقَبَّلَ فَمَها، واحْتَضَنَها بِشِدَّة، فاغْرَوْرَقَتْ عيناهُ، ثم أعادَ صورَتَها إلى الحائط.

ما أسوأ الاعتياد!!

تجمعوا عليه وأشْهروا في وجهِه كلَّ أسلحتِهم، بل وهجموا عليه وطعنوه بقبضةِ رجلٍ واحدٍ، دون أن يكونَ ناقة له ولا جمل، سوى أنه يؤدي عمله بإخلاص، تَخْلوا يَدُه من براثنِ الفساد.

هنا في هذه البؤرة تجمَّعت الأضداد، السنيُّ والمنحرف، الشريفُ واللِّص، الحاجَّةُ والعاهرة، الصالحُ والطالح.

فهذا الشيخ الذي يُؤذِّن للناسِ نهارًا، ويعاشرُ الساقطاتِ خلسةً ليلًا، فيرفض أهل الحي أن يُصلُّوا وراءَه، منْ آمن منهم.

وتلك السيدةُ التي تفوح عُهرًا، فتستقبلُ عشيقَها بعد أن تُغَيِّرَ ملاءةَ زوجِها.

وهؤلاء الأطفالُ معدومي الهوية، والملقون في الطرقاتِ والممرات.

كل هؤلاء تضافروا أمام بلدوزرِ الحي رافضين حيًّا نظيفًا وعيشة أرقى، تجمَّعوا بأسلحتِهم البيضاء على رجالِ الشرطةِ فاعتدوا عليهم، رافضين يدًا تمتد إليهم بالإصلاح، رافضين أن يساعدوا أنفسهم بالبحث عن فرصِ عملٍ جديدة، رافضين أن يخلقوا عالما يتميز بالخصوصية، فما أسوأ الاعتياد!!!

وقَبَّلْتُ قَدَمَيْها

وُلِدْتُ وَنَشَأْتْ في حَيٍّ شَعْبِيٍّ عَشْوائِيٍّ، شَأْنِي شأنَ الصِّبْيَةَ، ألعبُ في الشارعِ، وربما حافيَ القدمين. كنتُ أرى الأطفالَ يَسُبُّون أمهاتِهم وهم يلْعبون، وكثيرا لم أكن أفهم معنى الكلمات، لكنني كنت أُكَرِّرُها، فأَسُبُّهم بها، وقد أَسُبُّ بها إِخوتي في المنزل.

لم يكن هناك من يَمْنَعُنِي أو يُعَنِّفُنِي. وكَبُرْتُ ودَخلتُ الجامعةَ، والتحقتُ بكليةِ الزراعة، قسمِ الحيوان.

رأيتُ أنَّ الأمُّ تَلِدُ الحيوانَ، وما هيَ إلا ساعاتٌ، فيقف على أرجُلِهِ، ويعتمدُ على نفسِهِ في الحصولِ على غِذَائِه.

أما الإنسانُ، فهو أعجزُ الكائناتِ وأكثرُهُم تَأَخُّرًا في الاعتمادِ على نفسه.

تذَكَّرتُ كيف كانت أُمِّي تَتْعَبُ كثيرًا في إعدادِ الطعامِ لنا، وكيف كانت تَسْهَرُ تُمَرِّضُنِي إنْ أصابني مَكْرُوه.

تَذَكَّرْتُ كيف كانت تَكْذِبُ عليَّ وتَدَّعِي أنها شبعانة لِتُوَفِّرَ لي طعامَها، لأنني بحاجةٍ إليه لِأَكْبُر. تذكَّرتُ كيف كانت تَسْهرُ بجواري لِتُذاكرَ معي دروسي لأنجحَ وأَتَفَوَّق، وبعد ذلك كنتُ أسُبُّها، أو كنت أسُبُّ الأطفالَ في الشارع بأمهاتِهم، فَيَسُبُّونَها.

ذَهَبْتُ إليها، وقَبَّلْتُ قَدَمَيْها.

ونزلت عبرة من عيني

خرجتُ من حُجْرةِ الإفاقَةِ إلى إحدى غُرَفِ المستشفى لاستكمالِ العِلاجِ، كانت بِجانِبِي تَهْتَمُّ بمواعيدِ العلاجاتِ وتُطْعِمُني بيدِها كطفلٍ صغيرٍ، وتُنَظِّفُ بفوطةٍ صغيرةٍ ما يقعُ من فمي، فقد أُصِبْتُ بِجلطةٍ أثَّرتْ على فمي ونِصْفِي الأيمنِ بالكامل.

دخلَ الطبيبُ لِيتابِعُني، وهَمَسَ في أذني أنهم بِالكاد استطاعوا إنقاذي مِنْ ذبحةٍ قلبيةٍ بِسَبَبِ تناولِ جرعاتٍ متتالية من المُنَشِّطات.

شَعُرْتُ بِالخِزيِّ مِنْ نَفْسي، كَوْنِي أصارِعُ الأيامَ ولا أريدُ أن أَكْبُرَ، أبارزُ حبَّ زوجتي وتضحِياتِها من أجلي بعلاقاتٍ مع الفتياتِ الصغيرات.

ترى!! هل أخْبَرَ الطبيبُ زوجتي بسببِ حالتي؟

اقتنعتُ وجَزَمْتُ بِأنَّ اللهَ قد هَيَّأَ وظائفَ أجسادِنا مع مراحِلنا العُمْرِيَّة، فالقلبُ في هذا السنِ لا يَتَحَمَّل تلك الدفَقَاتِ

المُتَتَاليةَ من الدماءِ أثناءَ العَلاقةِ اليوميةِ أو حتى بتأثيرِ المُنَشِّطات.

أمْسَكْتُ بيدِ زوجتي قَبَّلْتُها ونَزَلَتْ عبرةٌ من عَيْني.

على وعدٍ بلقاءٍ آخر

مُنْذُ مدةٍ لَمْ يزورها، سَعِدَتْ بِحُضُورِه كثيرًا، لَمَعَتْ الفرحةُ في عينيها، دَخَلتْ إلى غُرْفَتِها سريعًا، لَمَحَتْ ستائِرَها الحريرية الوردية تَتَطايرُ هي الأخرى فرحًا به.

فتحتْ دولابَها، اختارتْ قَمِيصَها الأرجوانيّ، ذلكَ القميصُ الذي يرقصُ غبطةً على بشرتِها البيضاء، وما أن رآها هكذا حتى أقبل عليها بِشوقٍ، يمْنَحُها كلَّ ما تريد، أغْدَقَ عليها كلَّ ما افتقدته الفترة السابقة، احتضنها بشدة حتى امتزجا سويًّا وانتقلت روحه إليها، فَراحتْ تَخُطُّ أحلى حُروفِها وعِبَارَاتِها وقِصصًا لَمْ تخطر على عَقْلِ بَشَر، ولم تترك قلمها إلا عندَ الفجر، فَلَمْ يَعُد وقته الآن، لَثَمَها في فَمِها، على وعدٍ بلقاءٍ آخر.

ليْتَه ما فعل

اضطرتني الظروفُ ذاتَ يومٍ للمبيتِ في مقرِّ عملي، فَقَبِلْتُ على مضضٍ، لأنه كان في السابقِ مُتْحَفًا للجماجمِ وأدواتِ الجريمة.

قَرَّرْتُ أن أبقى يَقِظًا حتى الصباح، وفي غَفْلَةٍ مني رأيتُ جِنِّيًّا. فَفَزِعْتُ منه فَزَعًا شديدًا، لكنَّه رَبَتَ على كَتِفي وقال: لِمَ كُلُّ هذا الفَزَع؟

قلتُ له ألا ترى شَكْلَك؟

أجابني: هل تريدَ أن أثبتَ لك أنَّكُم الأقبح؟

أجَبْتُه مندهشًا: كيف؟

أجابني: سَأكْشِفُ لك بواطِنَ البشرِ ممن حولك، فأجعل جلودَهم شفافة، تكشف ما بِداخلهم.

وليته ما فعل.

في بعضِ الفقدِ حياةٌ

انْتَبَهْتُ ونظرْتُ أبحثُ عن مصدرِ الصوت عندما نادى عليّ، بحثتُ في وجوهِ المحيطين بي فَلَمْ أجدُ من أَعْرِفُهُ، استكملتُ رحلةَ بحثي على الرفِ في مَعْرِضِ الكتاب.

واصل النداء، كان يقفُ خلفَ الكاميرا، إنني أعرف هذا الصوتَ جيدًا، اقترب مني وهو يستكمِلُ تكرارَ اسمي، إنَّ له صوتًا لا تُخْطِئهُ الأذن، صَرَخْتُ بأعلى صوتي أ أنتَ "عليّ"؟ كيف صِرتَ هكذا؟

أجابني: لقد اتَّبَعْتُ نظامًا غذائيًّا قاسيًّا..

أجبتُه وضِحْكتي ملءُ فمي : وأين أطباق أم علي بالمكسرات التي كُنَّا نتسابقُ عليها؟

ضحك ضحكةً هيستيرية، وأجابني: أجْمَلُ ما فيها أنكِ كنتِ تشاركينني فيها.

سألته: ألم يؤثر هذا التخسيسُ الشديدُ على حالتِك النفسية؟

أجابني بِكُلِّ ثِقَةٍ : في بعضِ الفقدِ حياة..

مهلًا

سمعتُ ذاتَ ليلةٍ قرعًا على البابِ يَطْرقُ بِشدة، ففزعتُ، ارتعدت له أوصالي، له هزيزٌ يدفعُ البابَ دفعًا، ويدفعُ بالنوافذِ يكادُ يكسر زجاجَها.

انتظر ياهذا، فأنا لم أستعد بعد، فليس لديّ من اتكئ عليه، ويعينني عليك.

صحيح أني أمتلك مدفأةً، ومعاطفَ من فراءٍ، وألبوماتِ صورٍ ألتحفها مساءً، لا تكادُ تنطق فتدفئ الجو، ولا تتحرك يمينًا ويسارًا من حولي كما سبق. إني أخشاك حقًا، بِرَبِّك انصرف، فليلي طويلٌ، يزيدُ من وَحْشَتِه وحشةٌ أُخرى تلاحقني، فهذا صوت التليفزيون على أعلى درجة لكنه لا يُفيد، وأترقبُ رنَّة الهاتفِ المحمولِ وأتلكؤ بالنظرِ إلى ساعتِه دون جدوى..فهل هذا خريف حقيقي أم الشتاء؟

الكاتبة في سطور

الاسم : حنان إسماعيل عبد الهادي

الوظيفة الحالية: مدير عام المكتبات والمعلومات.

المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

المؤهلات العلمية:

دكتوراه في العلوم الانسانية البيئية، معهد البحوث والدراسات البيئية، جامعة عين شمس، نوفمبر ٢٠١٧م، في الرسالة المعنونة بـ "إشباع الاحتياجات الاجتماعية والنفسية لساكنى المجتمعات العمرانية الجديدة في ضوء مؤشرات جودة الحياة: دراسة حالة مدينة السادس من أكتوبر".

٢. ماجستير في العلوم الإنسانية البيئية، معهد البيئة، جامعة عين شمس، مايو ٢٠١٤م، في الرسالة المعنونة بـ "المجتمعات المسيجة في مصر"، دراسة للمتغيرات الإيجابية والسلبية للاستيطان البشرى، مدينة الرحاب نموذجًا"

الأنشطة:

عضو اتحاد الأدباء الدولي

عضو اتحاد الأدباء والشعراء العرب

عضو جمعية الكاتبات المصريات

عضو نادي أدب قصر ثقافة الجيزة

عضو نادي أدب قصر ثقافة الخانكة

محاضر مركزي بوزارة الثقافة

مؤلفات:

طوق الياسمين، مجموعة قصصية ٢٠١٩

خواطر أنثى عاشقة، ديوان شعر ٢٠١٩

ماس كهربائي، مجموعة قصصية ٢٠١٩

المرآة، مجموعة قصصية ٢٠٢٠

إكسير الأنوثة، مجموعة قصصية ٢٠٢٠

إكسير الأنوثة الطبعة الثانية ٢٠٢١

فهرس المحتويات